التقدير الفنى

بين النظرتين العلمية والفنية

عندما نحاول أن نتعرف مظاهر هذا الكون الغاص بالمجاهل والغوامض والحافل بالأسرار والأعاجيب نسلك طريقين ، طريق الفن وطريق العلم ، فكل حقائق الحياة وما تحتويه من عواطف وأهواء وخواطر وآراء وموجودات وكوائن مضطرب واسع يتسابق فيه العلم والفن ويتباريان فى الوقوف على دقائقه والكشف عن أسراره . والنظرة العلمية للكون تتناول الأشياء من الناحية التحليلية فتحصى صفاتها وخواصها ، وتلحق النظير بنظيره ، وتنظم الأشياء فى عقد واحد ، وترد مختلف الأشياء إلى طبقات وأنواع وطوائف وأجناس ، وينتهى بها فرط التحديد والتقسيم إلى ربط الأشياء جميعها برباط واحد وهو علاقة السبب بالمسبب ، أما النظرة الفنية فهى نقيض النظرة العلمية لأنها تقبل على الأشياء فى ذاتها وتتلمح خصائصها الفذة ومزاياها الفريدة . ولا تعبأ بالخارجيات والروابط والعلاقات وإنما تتأمل فيها ما يملأ الحواس ويفعم الشعور . فالكون فى نظرها كلية عامة مكونة من كليات صغيرة كاملة فى ذاتها قائمة بنفسها حرة فى نظامها .

والنظرة العلمية بتحليلها للمظاهر تنتزع الجمال من الأشياء وتذهب بالروح والرونق وتشرف بك على الكون بحراً تتضارب فيه أمواج التغيرات والأحداث المتتابعة وتتصارع فيه العناصر وتتعانق ، وتتفق وتفترق ، وتتركب وتحلل ، وتستمر هكذا على الدوام فى فيض متتابع ، أما النظرة الفنية فتشرف بك على

الكون كاسياً بالبهاء رائع المظهر تسمع خلاله أنغام الآباد وتلمح صور الخلود . والنظرة الفنية والنظرة الدينية منشقتان من نبع واحد ، وكما أن النظرة الدينية تستشف من وراء مظاهر الكون علة العلل وقدس الأقداس ، فكذلك النظرة الفنية ترى الكون قصيدة رائعة ألفاظها مظاهر الأشياء ومعناها الجليل مستتر خلال تلك المظاهر الخلابة . ومن ثم امتزاج الأساطير الدينية بالقصص والأشعار فى أديان الأمم القديمة وآدابها ، والنظرة الفنية ترى فى كل مظهر من المظاهر تحفة من معروضات الفن تثير الخيال وتهز النفس وتفتح أغلاق القلب ، وفى عصور القوة تغلب النظرة الفنية على النظرة العلمية أما فى العصور التى تضمحل فيها القوى وتذوى الغرائز فتتصدر النظرة العلمية ، على أن النظرتين لازمتان وكل منهما مكملة للأخرى .

والتقدير الفنى الصادق لمنشآت الفن ونفائس الأدب يقتضى وجود عاملين هامين وهما الاستقراء التاريخى ثم الخيال اليقظ المتدرب والذوق السليم المهذب ، ولابد من تآخى هذين العاملين ، فقد يقترن الاستقراء التاريخى الواسع بالخيال الكسيح الوانى والقلب المغلق الفاتر والذوق الفاسد العقيم فيحول ذلك دون تذوق الفن وتقديره ، والمؤرخ الذى لم يرزق حظاً وافراً من الذوق وقوة الخيال ليس فى وسعه أن يرتفع إلى سماء الفن وعالم التقدير الفنى ولو وقف على تلال عالية من المعلومات والأسانيد والوثائق التاريخية ، ولا يمكن أن يتغلغل إلى أرواح الفنانين ونفوس الرجال العمليين أو أن يسلك طريقه إلى لباب الحوادث الكبيرة المعقدة ، لأن استشفاف كنهها والخلوص إلى سرها فى حاجة إلى الرؤية الموفقة والزكانة الملهمة ، فهو يظل خارج حجرات نفائس الفن ومقاصير الأرواح وإن كان عمله قد يفيد بعض الفائدة إذ يمهد الطريق ويرفع المعالم لمن يجىء بعده من الموهوبين .

وكذلك الناقد القوى الخيال السليم الذوق إذا اكتفى بالتعويل على ذوقه الخاص ولم يجل جولته فى نواحى الماضى ولم يهبط إلى أعماقه تعذر عليه أن يفهم الأشياء على حقيقتها ولم يغن عنه ذوقه ولا خياله ، وقصاراه أن يقدم لك أفكاراً لامعة عن أشياء لفقها خياله المرح ووشاها الوهم والظن ، وعمله قليل الجداء وسعيه باطل عقيم فلا هو يعد من جامعى الآثار وممهدى الطريق ولا هو يحسب من رجال الأدب والفن .

على أن اجتماع الاستقراء التاريخى والذوق الفنى ليس كافياً لينشأ منه مؤرخ آداب وناقد فنى من الطبقة الأولى ، إذ لا بد من توفر ميزة أخرى خطيرة الشأن وهى المقدرة على التعبير وقوة الوصف والتمثيل ، فإذا استكمل المؤرخ هذه الشرائط واستوفى ناقد الفن كل تلك الحدود فهنا تظهر المؤلفات الخالدة فى الأدب والنقد والتاريخ ، تلك المؤلفات التى تبدأ عصوراً فكرية وتزخر تيارات الأفكار وتجلو العصور الغابرة أبهر جلوة وتعرضها أجمل عرض وأصدقه وتبعث الماضى الدفين من قبره حياً ملموساً وتشارف منها أرواح المؤلفين والفنانين ونفوس العظماء البارزين فى جلالها وتألقها ، بل تكاد تدميها إذا طعنتها كما قال الناقد الأمريكى لوك عن صور كارلايل التاريخية .

وأصدق الطرق لفهم عبقرية من طراز عبقرية شكسبير وتقديرها تقديراً فنيًّا هى أن نضع أنفسنا مكانه ونرتفع بخيالنا إلى مستواه ، وفى حياتنا الدارجة الرخيصة تفصلنا عن شكسبير وأمثاله مسافات شاسعة وأبعاد لا تقاس بالأمتار ، ولكن فى أوقات التأمل الفنى الخالص القائم على صحة الاستقراء التاريخى لحياة شكسبير وعصره وعلى سلامة الذوق وحيوية الخيال تتصل روحنا بروحه وتسرى نفسنا مع نفسه . وفى هذا الاتصال الفنى بأرواح العظماء تعظم الروح وتتسع آفاقها وتترامى حدودها فى عوالم الأرواح وتحلق فى سماوات الخلود ، ولا عبرة

بتفاوت العبقرية بين شكسبير وناقده الفنى وقارئه البصير فإن الفرق بين العبقرى الكبير وسائر الناس فرق نسبى وليس بالفرق الجوهرى ، وقد يكون شكسبير عبقرية كبيرة وناقده عبقرية صغيرة ولكنهما من معدن واحد ، ولو كان هناك فرق جوهرى بين العباقرة وسائر الناس لا نقطعت العلاقة بينهم وبين الناس ولعاش كل عبقرى ملفوفاً فى دخان من الغموض فلا يدنو منه إنسان ولا يدنو هو من إنسان .

والتقدير الفنى الصادق لمسائل الأخلاق والتاريخ والأحوال الاقتصادية والسياسية يجرى على هذه الطريقة ويفىء إلى تلك السنة . فى التاريخ لا نستطيع أن نقدر حادثة من الحوادث دون أن نقف على نصوص وتفاصيل كافية لتصورها على حقيقتها ، ولا يمكن الحكم على عمل من الأعمال الأخلاقية إلا إذا وضعنا أنفسنا مكان صانعه وأحطنا علماً بكل الظروف التى اكتنفته والمؤثرات التى أثرت فيه وإلا ظل الموقف غامضاً وكانت أحكامنا مظنة الخطأ وسوء التقدير ، والتفسير التاريخى للأشياء يفتح الطريق للتقدير الفنى ، وهذا هو سر السرور العظيم الذى يستخف جماعة المفكرين عند عثور علماء العاديات على أثر من آثار الماضى ، لأنه يكمل النقص ويسد الفجوات فى تصورنا للماضى ويدنينا من التقدير الفنى الصحيح للحضارات الغابرة والأمم السالفة .

وللأستاذ وندلباند الفيلسوف الألمانى رأى ساقه فى عرض كلامه عن « الجوهر » فى كتابه النفيس « مقدمة الفلسفة » يقارب ما أذهب إليه فى تقرير ما للتقدير الفنى من شأن قال « الفردية لا توصف وإنما يشعر بها . وهذا يصدق على الشخصيات الكبيرة مثل نابليون وشكسبير وجيتى وبسمارك وهو يصدق أيضاً على الشخصيات البارزة فى الأدب مثل هملت وفاوست ، وإننا نستطيع أن نعبر باللفظ عن كل عمل من أعمال العظماء وأن نفى كل صفة من صفاتهم

حقها من الوصف ، ولكن العنصر السائد المسيطر على الأعمال والصفات يجب أن يحس به ويجرب ، ومن ثم لا يلمح هؤلاء الذين يعبرون بالمقارنات والمشابهات الطبائع الخاصة لشخصية من الشخصيات ، والأفراد وصفاتهم الفردية من الأشياء التى لا تدرك بالعقل . ومن اللازم أن يحس القارئ ، بظلال الفردية من ناحية الفن وتوصيف حياة الأفراد فى كل طور من أطوارها حتى تظهر صورهم لعين القارئ وحدة حية كما تراءت فى الحياة ، ويمكننا بالتحديد التاريخى أن نفهم ونفسر العناصر المختلفة فى طبائع الأفراد لأن كل مايتعلق بمظهرهم التاريخى خاضع للعقل ، ولكن فى نهاية الأمر نرى أن جوهر فرديتهم متوقف على تلك « الوحدة » التى لا يعبر عنها والتى لا يمكن أن تصير موضوعاً للفكر والبحث لأنها شىء يلمح بالبداهة ويدرك بالبصيرة الواعية » .

وكل شىء إزاء التقدير الفنى يحمل مقياسه ومثله الأعلى فى مطاويه . فليس هناك مقياس عام توزن به الأشياء وإنما لكل شىء مقياسه الخاص الذى لايصلح لسواه ، فلكل حضارة من الحضارات وعصر من العصور وأثر من الآثار وعظيم من العظماء ميزان خاص متصل بأحواله ومستوى عصره . وإننا نتورط فى الخطأ ونغمط الناس فضلهم إذا تمسكنا بمقياس واحد ونظرنا إلى كل شىء من زاوية بذاتها ، فالحضارة اليونانية لا تقاس بمقياس الحضارة الرومانية ولا توزن حضارة بابل وحضارة الصين بالميزان نفسه ، ولقد وقع فى هذا الخطأ المؤرخ الكبير بكل « Buckle » هو وأضرابه ممن يرون أن تقدم الإنسانية رهن بتقدم العقل وتغلب قوانين العقل على قوانين الطبيعة ، فكانوا يرون فى العصور الوسطى عهد ظلمة وركود وجهل مطبق وسخافات ذائعة وخرافات شائعة ، والعصور الوسطى تبدو كذلك لمن حاول وزنها بميزان العقل المدرك والتقدم الفكرى ، ولكن للعصور الوسطى مقياساً آخر لأنها لم تكن عصر عقل واستنارة

وإنما كانت من تلك العصور التى يخمد فيها العقل لتثور العاطفة ، وكانت عصور عواطف عميقة ومشاعر جميلة رقيقة تجلت فيها الروح الدينية وبسطت سلطانها على النفوس وألهمت الفنانين القدرة على تشييد الكنائس البديعة وصنع التماثيل المتقنة والصور الخالدة ، وسادت فيها أقاصيص الفروسية وأعمال القديسين الأطهار التى يتجلى خلالها صفاء الروح ويتنسم منها أريج التقوى ، ولقد أخذ العقل قسطه فى الحضارات السالفة ، أما فى العصور الوسطى فنال القلب نصيبه ، فهى إذا قيست بمقياسها الصادق مقياس العاطفة عصر زاهر مشرق ، وقد علل الفيلسوف الألمانى هارتمان ازدهار الحركة الأدبية الكبيرة فى ألمانيا فى أوائل القرن التاسع عشر بما عمقته حياة العصور الوسطى من نفوس الألمان وما أفسحته لهم من مجالات الخيال والتصور .

ويصدق هذا كذلك عن العظماء ، فالعظيم فى الحياة العملية مثل نابليون والإسكندر وهانيبال لا يقاس هو والقديسون ورجال الفكر والفن والأنبياء بمقياس واحد ، فمن الخطأ أن نلتمس فى حياة نابليون دلائل رقة العاطفة وعذوبة الروح ونقاوة الفضيلة إلى غير ذلك من شمائل الأنبياء والفنانين لأن سر عظمته قائم على ضخامة الأنانية وفرط الدنيوية ، وقد روى أحد المؤرخين عن القديس الشهير سنت فرانسيس أنه أراد أن يثبت للناس حبه للفقر وإيثاره مظاهر العوز والحاجة فمشى فى الطريق وسط جمع حافل من الناس مجرداً من ثيابه ليعطيها لأبيه ، وظهر مرة على المنبر وقد تجرد نصفه من الثياب ومشى فى الطريق والأطفال تعدو وراءه صائحة : المجنون ! المجنون ! وهو من النبل وسمو الروح بحيث حاز إعجاب دانتى وأوحى إلى الكثيرين من رجال الفنون ، ولا يزال يوحى طوائف من أسمى الأفكار وأعلى المشاعر ، ولو أننا قسناه بمقياس صغار الأطفال أو بمقياس من المقاييس العلمية الجديدة لألحقناه بالمجانين

وشواذ الخلق ، والحقيقة أن كل مظهر من المظاهر الفنية أو الدينية أو العملية يجب أن يقاس بمقياسه الخاص وإلا كنا كالذى يحاول أن يميز الألوان بسمعه ويختبر الأنغام ببصره ويزن الدر والذهب بميزان الأحجار والصخور ، وليست هناك مقاييس مطلقة ولا موازين عامة ، وليست الحياة قوالب متشابهة ولا نسخاً متكررة ، والعالم بمافيه من خير وشر وفوضى ونظام وحدة كلية لكل شيء فيها مكانه المناسب وأقرب طريق لإدراك ذلك أن نرى الحياة فى ضوء الشعور والوجدان ونلمح الوجود بنواظر الشاعر والفنان .